البعد السياسي للمقهى
عند نجيب محفوظ

منذ نشأته يقوم المقهى بدوره السياسي الذي يمثل خطا تاريخيا موازيا لتاريخه بوصفه مؤسسة مدنية[1] يمكنها أن تكون في مقابل المؤسسة العسكرية والاجتماعية أو تكون على خط مواز بوصفها مؤسسة سياسية لها دورها الفعال في إثراء الحياة السياسية .

للمقهى بوصفه شكلا من أشكال التنظيم الاجتماعي قانونه الخاص الذي يدخله في طبيعة المجتمع المدني من حيث هو مجتمع يأخذ صيغته من خلال العقد الاجتماعي ، أو الأعراف والتقاليد غير المكتوبة التي تعد صيغة مقابلة لإطار الدولة التنظيمي[2] وهو ما يمكن تسميته بسياسة المقهى في مقابل مقهى السياسة ، ذلك المقهى القادر على أن يحتضن العمل السياسي بنوعيه : قولا ، وفعلا .

---

[1] - تاريخيا يتحدد ظهور المقهى فى الحياة العربية بعام1750 ، ومنذ هذا التاريخ يقوم المقهى بدور يكاد يكون سجلا واضح الملامح للحياة العربية على شتى مستوياتها (الاجتماعية - السياسية - الثقافية - الفنية) ، مع تجدد واضح فى هذه الأدوار ، تجدد تفرضه طبيعة الزمن ، وظروف اللحظة التاريخية ، بوصفه مكانا له خصوصيته، يخضع المقهى الروائى لوظائف يتأهل لها عبر مجموعة من السمات الفارقة التى تجعل منه مكانا (بيئة) صالحا للقيام بهذه الوظائف ، مؤهلا للقيام بالدور الخاص ، إذ هو المكان العام فى خصوصيته ، والخاص فى عمومه، أو هو القادر على أن يكون الاثنين معا ، أو أن يكون على الوضع الذى يريده مرتادوه خاصا رغم عموميته ،أو عاما فى خصوصيته ، فالظاهر أن العلاقات على المقهى عامة مفتوحة ولكن نوعا من الخصوصية أو قل نوعا من السرية يؤطر هذه العلاقات كما نجد فى لقاءات السياسيين والمطاردين بسبب أفكارهم .

[2] انظر : شارلوت سيمور -سميث : موسوعة علم الإنسان ، المفاهيم والمصطلحات الأنثربولوجية ، ترجمة :مجموعة من أساتذة علم الاجتماع ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1998، ص 614.

ممارسة السياسة قولا :

تكون السياسة ممارسة للقول ، والخوض في الموضوع السياسي دون ممارسة الفعل السياسي أو خروج السياسة لحيز التنفيذ ، وهو ما يدور في "الزهرة" بين سيد عارف وكمال خليل وأحمد راشد والمعلم نونو ، حيث يمتد الحوار بينهم عن الحرب العالمية وسياسة الفوهرر :

" وسينتهز الألمان فرصة ضباب الخريف الكثيف ويهبطون على شواطئ إنجلترا وينهون الحرب ....." [1]. ولا يعني امتداد الحوار أو تكراره في أوقات أخرى اقتراب المتحاورين من درجة ممارسة الفعل السياسي ، فالمعلم نونو يحسم حدود الحوار ، واضعا نهايته بقولته الشهيرة:

"ملعون أبو هؤلاء وهؤلاء ، فلا الألمان أمنا ولا الإنجليز أبونا ، وليذهب بهم الشيطان جميعا إلى الجحيم" .

كاشفا عن كون الحوار نوعا من متابعة الرواد للأحداث ، ولأن القضية خارج نطاق الاهتمام الحقيقي لا تتحول لصيغة من صيغ الانتماء للوطن أو قضاياه ، هنا تبقى "الزهرة" عند درجة المكان المحتضن ، الصانع سياقه الخاص وبيئته المناسبة للحوار ، والمنفتح في الآن ذاته على الحدث السياسي مهما كان بعيدا .

---

[1] خان الخليلي ص 91 ، 92

وتعد مقاهي المثقفين صورة أخرى من صور الممارسة القولية للسياسة ، بدأت عند محفوظ الذي لم يخصص مقهى بعينه لهم ، وإنما ظهر المثقفون بوصفهم شريحة اجتماعية ، داخلة في نسيج رواد المقهى ، وهي الصورة التي تطورت لدى أجيال تالية لنجيب محفوظ .

وعلى المتلقي ألا ينخدع بهذه الإشارة فيتجاهل دلالة المقهى أو يقلل من أهمية هذه الدلالة ، فإذا كان الراوي يعمد إلى أن يجعل النص يتحدث عن النص فإنه يجعل النص يخرج من مقهى المثقفين ليدخل في تقريرية دالة إلى دور المقهى عالميا ، وهو لا يرسمه بقدر ما يقرره ، ويأتي استدراك الراوي دالا بإشارته لدور هذا النوع من المقاهي:

"غير أن المقهى ليس مجرد اسم يطلق على مكان ما ، ففي مقاهي المثقفين ينحفر تاريخ الحركات الأدبية في العصر الحديث ، وتتولد النظريات التي تغير مسارات العالم ، ويرسم كل فترة قاص أو شاعر ثم يمنح صك الاعتراف".

والمقهى في تعبيرها عن المثقف تقف عند منبع الأفكار المحركة للسياسة ، أو الصانعة لهذا الإطار الاجتماعي القادر على أن يساهم بقدر نظرس في السياسة العامة للمجتمع .

كما يفرد فصلا كاملا يعنونه بـ "مقهى المثقفين" يستفيد الراوي فيه من مفاهيم السسيولوجيا مؤكدا على المقاهي ودورها ، وقيمتها التاريخية والاجتماعية ، وما يترتب على ذلك من آثار على المجتمعات الحديثة التى لم تعد قادرة على أن تستغني عن هذا النوع من المؤسسات .

السياسة بوصفها فعلا :

على النقيض من الزهرة تقف (الكرنك) بشبابها من السياسيين : زينب دياب ، إسماعيل الشيخ ، وحلمي حمادة وغيرهم الذين يمارسون السياسة بالفعل أو وجدوا أنفسهم مدفوعين لذلك ، والذين يشكلون مناخ المقهى ويمنحون المكان بعدا سياسيا واضحا يبدو المكان مغايرا لطبيعته بغيابهم ، وتكون عودتهم الحدث الذي يعيد المكان لما كان عليه "إن الحياة في الكرنك استعادت روتينها اليومي ولكنها في الواقع فقدت قدرا لا يستهان به من صميم روحها " [1] .

من الصعوبة بمكان أن تتجاوز البعد السياسي الأصيل في الكرنك الذي يصبح مقرا لتنظيم سياسي لم يتشكل عمدا وإنما شكلته الظروف ، وقد كان مجرد اجتماع الشباب واعتقالهم أكثر من مرة كافيا لأن تكون هناك جماعة بشرية وضعتها ظروف لحظتها التاريخية في تنظيم سياسي لا يختلف كثيرا عن التنظيم الاجتماعي القائم في مقهى يجمع الناس على اختلاف هوياتهم ، وأجناسهم ، مغيرا السائد بأن المقهى مكان رجولي ، يخص مجتمعا ذكوريا .

هنا يعمل المقهى على تشكيل الوعي الإنساني موظفا السياسة بوصفها تفاعلا – اعتراضا أو قبولا – بما يدور في محيط الوعي من أحداث ، وحيث الالتحام بعالم المقهى المستقرة ملامحه يفضي بالضرورة

---

[1] الكرنك ص 22

إلى المشاركة في اللعبة الواقعية أو لعبة معاينة الواقع والتفاعل معه مما يؤهل المقهى للقيام بأدوار عدة تتوالى وتتراتب :

– أولها : يشكل انطلاقا إلى عالم غير خاص ، أو دائرة جديدة تغاير حدود المنزل الأسري أو الأسرة بمعناها البسيط ، فالمقهى لا يرتاده الأطفال ، وليس من رواده من هم دون سن الرشد [1] ، وأبطال "قشتمر" يشعرون بالحرج ومخالفة العرف الأخلاقي عندما أقدموا للمرة الأولى على ارتياد مقهى قشتمر، وقد كانت مقولة الصباغ لأصدقائه مفجرة لأسباب المفاجأة الجريئة :

" مجلسنا تحت النخلة لم يعد بالمكان المناسب ، عثرت لكم على مقهى مناسب " .

"روعتنا لفظة المقهى الذي يعتبر عند أهلنا من المحرمات ، كيف نجلس بين رجال في سن آبائنا وهم يدخنون النارجيلة".

ولكن الترويع لم يثنهم عن الذهاب للمقهى :

"وفى سرية تامة تلمسنا طريقنا إلى الظاهر ، تسوقنا روح المغامرة ، ويعتمل في ضمائرنا إحساس بالذنب ..." [1] ، ولكن هذه السرية لم يكتب لها الدوام ، فقد كان ارتياد المقهى علامة نضج هؤلاء المتسللين الطالعين للحياة ، ومن ثم تكون المرحلة التالية كاشفة اقتران النضج الجسمانى

[1] لا يخفى أن هذا الحكم من واقع الطرح الروائى للمقهى ورواده ؛ فقد يحمل الواقع ماهو مغاير لذلك .
[1] قشتمر 28 ، 29

بنضج الوعي السياسي المتجلي في المشاركة السياسية والعلم بمجريات الأمور وسياسات الحكم ، وإظهار نوع من الثقافة السياسية :

"وفي ذلك الوقت اشتركنا ولأول مرة في مظاهرة وطنية . لم نعد أطفالا من ناحية ، والمظاهرة مأمونة العواقب من ناحية أخرى ، فوزارة الداخلية هذه المرة بيد زعيم الأمة ورئيس الوزراء" .

وقد تكشف ذلك صراحة فيما تنطق به ألسنتهم معبرا عن موقف يتشكل حثيثا: "نحن على أي حال مع سعد لسبب وبغير سبب وضد الملك بسبب وبغير ما سبب ... " واتفقت قلوبنا على ذلك " .

وعبر المشاركة في السياسة العامة أخذت السياسة الخاصة لهؤلاء تتشكل رويدا حتى ظهرت خيوط عدة تكشف عن السياسة / السياسات الحياتية التي أخذ هؤلاء يرسمونها لحياتهم ، متبلورة في خط التجريب الذي ساروا فيه ، ومضيفا للثقافة العامة التي راحت تنمو ببطء ، هنا أصبح المقهى المكان الآمن للتخطيط لهذه السياسة :

"ومع الثقافة اشتعلت نيران الجنس ، أقسى من الشك وأعند إلحاحا تطاردنا ليل نهار ، وزاغت الأبصار متطلعة إلى مجالات الجنس اللطيف" .

ويلعب المقهى دوره في التجربة بوصفه متيحا المتابعة البصرية للمعرض المتحرك في الطريق ، وتكتمل أركان التجربة بارتياد شارع كلوت بك ، ولكن قلق الفعل الأول يجعلهم يرتدون للمقهى بوصفه الحضن الآمن للإفضاء بتفاصيل التجربة ، وتبادل الاعترافات :

" والتقينا عند رأس الطريق ونحن نتبادل نظرات باهتة ولزمنا الصمت حتى جمعتنا مائدتنا في قشتمر ، ونفد صبر كل واحد في معرفة ما وقع للآخرين ، وكان صادق أول المعترفين "[1].

لقد دخلت العلاقة بينهم والمقهى طور الاستقرار فلم يعد المقهى على عمومه مكانهم وإنما بات من الخاص أن يكون لهم مكانهم المحدد (مائدتنا) الذي يمثل المرجع المكاني للقاء وتبادل الخبرات .

– ثانيها : يفتح الوعي على كل العلاقات الممكنة ، وعلى أشكال مغايرة لعلاقات النسب أو علاقات الدم ، فقد بات محتضنا لنوع من المنادمة التي تخلق شريك المآسي ، كما تصنع الشراكة في المصير الإنساني كذلك .

– ثالثها : يمنح الفرصة (ترتيبا على الدور السابق) لخلق حوار ممكن لا يتيحه غيره من الأمكنة ، وهو حوار يتأسس على هموم الحياة ومتاعبها ، متطرقا للسياسة بوصفها نشاطا إنسانيا لا يتاح غالبا في نطاق الأسرة التي لا تقبل لأبنائها العمل السياسي إلا إذا كان مهنة رسمية أو عملا معترفا به من العامة قبل الخاصة[1] .

– رابعها : أنه – بعيدا عن جماعة قشتمر – يعد نقطة انطلاق مؤهلة للفعل السياسي ، ومحطة لقاء للأفراد المشتغلين بالسياسة غير المقبولة على المستوى الرسمي ، مما يجعل المقهى مكان اجتماع غير رسمي في مقابل أمكنة الاجتماع المؤسساتية للدولة . والمقهى بوصفه

---

[1] قشتمر ص 34

[1] - نعنى السياسة التى يمارسها الأفراد تمردا أو خروجا على النظام تعبيرا عن معارضتهم للسياسة الرسمية للدولة

مكانا مفتوحا للجميع قادر على أن يستوعب الكل دون استثناء ، وأن يمنح الفرصة لممارسة لعبة التخفي الظاهر أو اللعب على المكشوف مع الآخر ، وأن يحقق نوعا من الخصوصية في إطار الجماعة البشرية [٢] .

إن قدرا من الحرية يتيحه هذا الجو المنفتح ، وقد أتاحته مقاهي الشرق منذ القديم ، وهو ما يؤكده "ليميز" :

"وكما في باريس وروما ولندن والبندقية فإن مقاهي الشرق تمثل مراكز حرية التعبير فيها هي القاعدة .. وحيث يمكن للحرية أن تكون رخصة دنيئة أو مطمحا للمطلق والحق" [٣].

وهذا يفسر إفراد الرواية العربية لمقاه مخصصة ، متعارف عليها لهؤلاء المطاردين سياسيا ، أو المراقبين بسبب آرائهم .

وعلى الرغم من اشتباك السياسي والاجتماعي يظل المقهى المحفوظي قادرا على تقديم البعد السياسي فى معظم أعماله الروائية حيث يحول المقاهي إلى أمكنة تضم حياة سياسية شبه كاملة وأن غلب عليها اللا نظام أحيانا، إذ هو في النهاية ملتقى لمن يريدون أن يسوسوا حياتهم الخاصة أحيانا بإحداث نوع من النظام فيها أو نوع من التغيير الذي لا يصيبها بالخلل .

---

[2] وهذا ما ساعد كثيرا على ظهور الجماعات الأدبية فى مصر واحتضان المقاهى لهذا النشاط الذى يتطلب خصوصية فى مكان مزاولته بعد أن كانت تحتضنه الصالونات الأرستقراطية .

[3] جيرار جورج ليميز : مقاهى الشرق ، ص 53.